نَقَرَات الظِّباء(1)

ميرال الطحاوي*

على صدري حطِّيت شهايد(2)
بلا موت يَا عَلَم

-1-

كانت «هند» دائماً صغيرةً وبجديلتين وأشرطة، رأيتها تجلس على ساق سيدة سمراء، زنجية شديدة السواد، على رأسها عقدت منديلاً أبيض وتطرّحت بالسواد، عليها ثوب قصير بوردات، وعلى خصرها حزام من الخرز الذي تضعه الغجريات، وتحته سروال منتفخ بربطة من على معصم الساق، قالوا: إن اسم الخادمة «انشراح»، وكانت تقف إلى جوارها «سقاوة» الكبرى الممتلئة، و«سهلة» النحيلة حتى الآن، كانت «سهلة» هي التي أعرفها تماماً، والتي تعرفني منذ كنت في الأقمطة، وهم ما زالوا يبحثون عن امرأة تلقمني صدرها.

«النجدية» لم تكن في الصورة، كانت حاضرة خلف الإطار، ربما كانت تعدّ القهوة على طاولة القاعة الكبيرة، حيث تراصّت قدور نحاسية عدة، وانكفأت إحدى الخادمات لتلميعها، أو كانت تفترش الأرض وسط مجلسها في «البلكون» المطلّ على عدّة أشجار توت ضخمة ومزْيرَة، وبعض غرسات البرتقال التي كانت تخلق في الربيع ذلك الدويّ لنحلات صغيرة.

تجول «هند» وهي ممسكة بهذا «الكشكول» الذي اعتادت أن تدوّن فيه أوراقها، وإذا دخلت إلى المشى، فستجلس على جذع شجرة المانجو الهندي التي يبدأون في قطافها أولاً؛ لأنها تنضج قبل الأخرى، أو

تقرفص على غابة من أشجار الجوافة التي في آخر الدغل، هناك ستراه ممسكاً بصدر «فرحانة» الخادمة التي تتقافز كقردة فوق التراب، ويتأرجح لهاث صدرها وسط الخرزات التي تنفلت من عقدها، بعد ذلك ستحكي خادمة أخرى اسمها «روضة»، سمراء، أيضاً، ولها زعرورتان من شعر ملبّد جَعِد كان ينتظرها أسفل التلة، حيث تعود بالبهائم في المساء ممسكة بمقود المهرات الصغيرات الثلاث، تعرف «هند» أنهم إذا أطفأوا «الكلوب»، وانتهوا من حكي الحواديت وتسربت أخواتها إلى فراشهن تاركات الخادمات في قاعة الطبخ يعدلن من وسائد القش تحت رؤوسهن، سيحكين عنه. تقول «روضة»، أيضاً: إنه بلغ، والأولاد في هذه السن يصبحون كالطلائق أو ذكور الجمال إذا هاجت، وستضحك «انشراح» التي تقول: «إنّه يكفيه فاطمة القرومية»، وستحاول «هند» التي تتلصص على بقايا الحكي أن تفهم كيف يمكنه ذلك، وهو الولد الصغير النحيل الذي تراه في الأعياد صغيراً يقبّل يد «النجدية»، ويقول لها: يا «حنّى» بدلاً من يا «آنا» كما يقول الأتراك، وهي تربت على رأسه، وتصرّ في يده قرشاً أحمر.

«هند» التي لم أرها في غير هذه الصورة التي كانوا يقفون أمامها في غرفة الصالون التي امتلأت حوائطها بالصور الباهتة، لم تكن لها صورة عرس، كانت فقط منزوية على حجر خادمتها «انشراح»، صغيرة وبجدائل يقفون أمامها؛ ويرددون تلك الكلمة «مسكينة»، وقد صاروا لا يتكلمون عنها؛ لأنها بدت بعيدة وخارج كل ما يخصهم، قالت الجدّة «النجدية» تلك الكلمة، ثم أكملت أنها لما رأتها آخر مرة كان شعرها كثيف البياض، وجسدها شديد النحول، رأتهم وهم يسكبون الماء على جسدها قبل أن يلفّوها بالكفن، ويسكبوا العطور وينصرفوا، دون أن يصرخوا أو يبكوا أو حتى يلبسوا ثياب الحداد، كانوا قد أعلنوا موتها قبل ذلك بكثير من يوم أن أدخلوها هذا البيت وأغلقوا النوافذ والأبواب، وانسحبوا غير منتبهين إلى صراخها، وقالوا: «مسكينة»، ثم تحاشوا ذكر اسمها! رجعوا سريعاً إلى بيوتهم، لكن «هند» منذ ذلك الحين وهي تأتي إليّ. كانت أوّل مرة شاهدتها وهي تركض في الفناء، كنت ناعسة على حجر «النجدية»، وهي تحكي لي حكاية «السُّهى»؛ تلك الظبية التي ركضت في السماء، ولأنها تركت وليداً صغيراً على الرمال لا يعرف كيف يهرب من صيّاده، تركت له نقراتها المضيئة نجوماً تتنبأ بمواضع الخطر، تفرد «النجدية» أصابعها محددة ساعات النحس حين يهل الهلال والسهى عن يساره، وأيام الزعابيب. حين يصير القمر بدراً والشعرى اليمانية جنوباً والسُّهى في القلب، هكذا تؤرِّخ «النجدية» لأيام الضيق وأيام الفَرَج.

نظرت تجاه «هند» التي ركضت أمامي صبية صغيرة بضفائرها وهيئة قطة، فالتفتت «النجدية» إلى «سهلة» الجالسة جوارها، ثم قالت: «يا بنت، يا سهلة .. البطن هي التي تكب وليس القلب يا نضري» ، «سهلة» التي ألقت جسدها على عمود «التراس» أنامت رأسي على حجرها، وبدأت في تقليب شعري بأصابعها، وأعادت تضفيره، وهي ترتّل في الرقى والتعاويذ، لكن «هند» صارت تأتي أكثر، تتلحس قدمي؛ فأستيقظ وأضمها إلى صدري، لأعرف كيف أنام وسط شخيرها، تنبش في السجادة، حتى تجتر خيوطها بمخالبها، وحين صرت أقول له ذلك وأنا عارية، كان يقبّلني ويقول إنني حبيبته، وإنها مجرد هواجس، كنت

أبكي أكثر، متأكدة أن ثمة فضاء أبيض أسير فيه عارية، وهي تطير حولي كفراشة، وقد تضحك أو تسخر مني، وكنت متأكدة أن الكلاب إذا نبحت فقد رأوها مثلي حتى لو كانت في هيئة فراشة أو طيرة أو قطة تلحس في قدمي وأنها كانت تأتي إلى كثيرين مثلي، هي التي قبّلت «سقاوة» في فمها لترحل، وهي التي رأتها «النجدية» تُحكِم عليها الغطاء قبل أن يسبِّلوا عينيها ويقولون: الله يرحم الجميع.

-2-

لا تعرف من أسماها بهذا الاسم «سهلة» في الميردديه، حيث أخذتْ الجدة «النجدية» ثلاثتهن، وأسلمتهن لمدموزيل «آنيتا»، أطلقوا عليها اسم «روز»، ظلت ثماني سنوات بهذا الاسم، حتى أتى لملوم باشا الباسل ليقبّل صغيراته في آخر الحفلات المدرسية، ويجمع حقائبهن ليعدن، حيث تجلس «النجدية» على البساط في «البلكون»، إذ ما زال لهنّ على ضفة العباسة بيتٌ ومرابط خيل وبيت من الشّعر(3) في فناء تحيط به حدائق المانجو والبرتقال من كل اتجاه، كانت «هند» من بينهن هي التي تعرف كيف ترتدي السراويل الضيقة، وتضع على رأسها قبعات القش ذات الوردات، ولها صورة كبيرة وهي تلعب في الإسطبل رفقة فتاة سمراء من العبيد الذين يسمونهم «عبيد عيلة منازع»، كان اسمهم كذلك قبل أن يكتشفوا أن هناك أسياداً أكثر ثراءً فيشحنهم «مبارك العبد» ليعملوا في تلك الأرض البعيدة التي يخرج منها النفط، حيث يجيدون – كما هم دائماً – سلخ الضأن، وغلي القهوة بالحبّهان والهيل، وتدليك السيقان بالماء الدافئ والريحان الأخضر، هم بارعون في إيقاد النيران، ويعرفون كثيراً عن الجوارح(4)، كتنظيف ساق الطيرة حتى لا تُصاب بالبثور، ومكافأة المهرات بقطع السكّر، وترويض الكلاب السلوقي، كانوا بارعين تماماً في تلك الأعمال طالما أن الأسياد بارعون، أيضاً، في أن يظلوا على سيادتهم، ولا يتهدّل لعابهم على أصداغهم وهم يحكون عن أمجادهم بصيغ التذكُّر أو التحسّر على ما كان.

الأميرة «مهرة» بنت آل شافعي، كما كانوا يلقبونها، تسكن الآن بيت «النجدية» مثلما سكنته هند وسقاوة وسهلة، ويجلس أبوها أمام بيت الشَّعر يتوسّد ساق العمّة «مزِنة» ويقول لها: «يا مزون الله يرحم والديك كان جدك الكبير (الشافعي) يطوف بالقوافل من سنار إلى قوص وقفط فعيذاب دون أن يجرؤ أحد على حثّ الرمال في وجوه جماله ..»، العمة «مزنة» التي بقيت له من أخواته الكثيرات كانت تأتي على حمارة بخرجين تُعبِّئ له فيهما القديد واللبن الخضيض وجميد الجبن المالح لسفراته الطويلة، هي التي علمتها كيف تقرفص ساقيها على البساط، وغزلت (لمهرته) عرائس من وبر الضأن، ورقَّعتها بالأحجبة، وحملتها على ساقيها كثيراً وهي تكركر مقلّدة ركض الجمال، وتهنهن «ما أنك للي يصيد عويل ولأنك ثوبة(5) للرعيان» لتؤكد لي دائماً أنني «ابنة عرب» وأنني فرس أصيلة، فالجد الأكبر «الشافعي السُليمي» كان كريماً، أكرم من حاتم الذي يحكون عنه في الحواديت، وكان فارساً يركض حول ربوة يقال لها «العالية»، قالوا: إن فيها إحدى زوجاته التي أطلق عليها الخرطوش، لأنها قررت هجره، وإنه مجنون تماماً كان بصحن داره الواسع عدة نخلات يجلس تحتها، وحينما يمرّ الناس من على بابه، فعلى كل من يركب دابة

أن يترجّل عنها، وأن ينظر في الأرض حينما يمر، وإنه جلد كثيراً من الغرابوة على هذه النخلات، لأنهم همج ولا يعرفون تلك الأصول، كما أنه كان يوقد ناره قبل أن تدخل الكهرباء إلى أرضنا، وكان يركب فرسه ويمر على الأبواب ويسألهم «نار من هذه يا ولد؟»، وكان نصيب من يجهل نار آل الشافعي أن يجرّه على تلك النخلات، ويعود ليتصدّر مجلسه وهو يلعن الزمن الذي لم يعد يعرف فيه للرجل أصل من فصل، وكان الكثير من الصبية يعتقدون أنه مجنون؛ لأنه ما زال يتصور أن نيرانه هي التي تبحث عنها القوافل المتعبة ليقريها، فيما كانت العربات التي تجري على الطريق المسفلت تمضي من أمامه طول الوقت، هذا الجد الذي أورث أبي بيت شَعْره وعدة كلاب سلوقي وعدة للملفاف(6) وبعض الفدادين التي قسمها بين أولاده الكثيرين، كان حريصاً على أن يجد أحداً من أولاده يتصدر مجلسه من بعده، وكان أبي يعرف كيف يفعل ذلك، رغم أنه تلقى تعليمه في «فيكتوريا كولج»، وكاد ينال ليسانس الأدب الإنكليزي، لكنه كان متيماً بتلك الجلسة حول النار التي تترك رمادها يسف في الحلوق، فقد كان يقضي معظم وقته في تلك الجلسة، كان هناك إلى جانبه «سرور» و«مبارك العبد»، وكثيرون يجدون متعة في تدخين بعض الأشياء النفاذة، وشرب القهوة المذاب فيها الأفيون، ومضغ بعض الحكايات عن أحد أفراد الأسرة، خصوصاً الجد الأكبر ورحلات قنصه في أرض الهيش والمالح . أو الجد للأم «منازع» ورحلاته إلى أرض السبخ والسودان، كان مع ذلك يتحدث بطلاقة ويحفظ أشعار غوته ويرددها بإنكليزية متميزة، وهو الذي درّسني روايات شكسبير بصوت متزن ممسرح كان يبهر كل خلجاتي.

لكنه لم يوافق على الإطلاق، رغم ثقافته، على فكرة المدارس الداخلية. وقال: إنها أفسدت عقل أمك وخالاتك، هو الذي اقترح تلك الفكرة المضحكة؛ أن أذهب إلى مدرسة رَبْع منازع الابتدائية محمولة على كتف عبدة سمراء لأحد أبناء «مبارك العبد» كان اسمها «نوار»، كانت تضعني في المقعد الأول من الصف بعد التنبيه بألاّ يجلس أحد جواري، معظم مدرسي المدرسة التي كانوا يعرفون أن عليها اسم جدي كانوا مقدرين رغبة أمي بنت للموم باشا الباسل في ألاّ أتعلم أشياء مخلة، خصوصاً أن كل من حولي هم مجرد فلاحين، تعرف العمة «مزنة» بالتفصيل كيف تقول «حبايبنا وطول عمرهم خدامينا» تقول كلمة خدامينا بتواضع وكأنه شرف كانوا محظوظين به، بعض المدرسين الجدد كانوا ينظرون إلى «نوار» التي تجلس على باب الفصل في انتظار حملي بتطفّل، وأحياناً باستغراب، بل وتجرّأ أحدهم وأنزلني من شبّاك الفصل الذي كنت أمدد عليه ساقيَّ وأهزهما منخرطة في غناء «عايش في عزه ودلاله، من كتر نياقه وجماله وعنده عزوه من رجله ما فيهم واحد دلال»(7)، حين جذبني من ذراعي، وهو يقول: «فاكرة نفسك في عزبة أبوك»، أبي الذي قال له إنها عزبة أبيها وجدها، وأن تلك الأرض كانت لهم منذ كانت حمراية تسف الرمال لا يجرؤ على المرور بها عفريت النهار، وأنهم كانوا أسياده حين كان آباؤه يأكلون الخراء في تلك القرى الحقيرة التي كانت تفتك بها المجاعات والتيفوس، ولا يتسع النهر لجثث أمثاله، فيما كان جده «منازع»، هذا الذي اسمه على المدرسة، يركض بفرسه من المشرق إلى المغرب، ويخط معالم هذه الأرض المقفرة، المدرس الذي بدا غير متفهم، نصحه بعض أصدقائه بالاعتذار لأنهم «عرب» وطباعهم صعبة، وقد

يفعلون أي شيء إذا جرح أحد كرامتهم، لم يقتنع تماماً بما قيل فاحترقت ذات مساء تلك المدرسة الابتدائية التعسة، وكان أبي يجلس في مضيفته سعيداً وراضياً يحتسي مزيداً من مغلي القهوة ويقلب في الرماد. مشكلة المقعد الأول في الفصل تم حلها بهذا الحريق، حيث افترش الجميع الفناء الرملي بلا مقاعد ولا كراسي، وأيضاً، كلّت «نوار» من حملي بعد أن تعلمت الركض ذهاباً وإياباً، خصوصاً أن المدرسة كانت تجاور سور البيت، وتقابل بيوت أعمام آخرين قيل لي إنهم أعمامي.

كان أبي كريماً، أيضاً، على طريقته، فقد قرر أن يجلس في المضيفة، ويشعل النار، ويسلخ الضأن، ويلتف حوله سرور ومبارك وبعض المتحمسين من الشباب يتحدثون دائماً حول المشروعات الحضارية التي تحافظ على مكانة العائلة، كان كريماً للغاية ويبيع القراريط من فدادينه بما يتيسر لشاريها، وكان أكثر هؤلاء ممن يطلق عليهم الغرابوه والبراموه، وهم من أطراف الغربية من منطقة تدعى «برما»، ربما يشتهر أهلها بتربية الدواجن وبيع البيض، فقد كان معظم هؤلاء نساء قصيرات بيضاوات يحملن أقفاصاً فوق رؤوسهن، ويجلسن أمام المضيفة، ويقلن «يا شيخ العرب» بلكنة مضحكة، يفتحن على إثرها مناديل رصصن فيها النقود الورقية المتسخة التي يتعبن في عدّها قبل أن يتفقوا على أقساط طويلة لم تمكنه من إقامة مشروعه كما خطط له، وكان قد قرر أن يملأ المرابط الخالية التي بقيت ملاصقة للدوار، وهي مذاود فارغة نصفها متهدم، وأن يبني بدلاً منها مزرعة تليق بتاريخ العائلة، سيبيع مزيداً من القراريط ليشتري سلالات أكثر أصالة، وسيجلس جانب عمتي «مِزْنة» التي تهز شنافها موافقة وهو يختار في أسماء جياده ويقول لها: «يا مزون جدك الشافعي كانت فرسته اسمها (زاد المركب) كانت شقراء بلون صفار الغلة في الحقول، وكان جدك منازع يقول: لو جمعت هيل العرب في صعيد، وأرسلت واحداً لكان سابقها أشقر .. الشقرا أصبر يا بنت والدي». عمتي «مزنة» ستقول له: «إن مهرة جدك منازع كان اسمها الزعفرانه، كانت صغيرة وهي تلعب أمام بيوت الشَّعر وكانوا يقولون الزعفرانة في سواد الليل غراء محجلة لكن نسلها قليل»، وسيقضون وقتاً أطول وهم يتجادلون حول الشقراء والدهماء، وسيقضي أبي وقتاً أطول وهو يطوف مع سرور في العربة (الجيب) اللاندروفر يبحث في ديار قبائل الحويطات وهوارة وجهينة عن عدة مهرات تصلح لحمل نتاج نقي، ويقف أمام كل جواد يبحث عن أنفه الذي يجب أن يكون متسعاً، ويتحرّى عن طول العنق وعظم الفخذين وطول القوائم، ويؤكد أن المهر العربي صغير الرأس أكحل العينين، مصراً على أن يختبر خارطة الأنساب، وأن يتحقق من ذلك بطول العنق، فالفرس الأصيلة تشرب دون أن تثني قوائمها، والمهجنة تبرك لتطول الماء، وبعد عدة رحلات فشل في اكتشاف خريطة الأنساب هذه، وأدرك أن الكثير من الأنساب قد اختلطت، وسلم واقتنع بأن شجرة أنساب المهرة ليست ضرورية، بإمكانه أن يتزود بالفراسة، ويتكهن بأصالة مشترياته بمجرد النظر، فأعاد التشاور مع العمة «مزنة» حول الكُمَيْت والدُّهمة والشؤم من المُهُر حيث تربعت العمة معلنة أن الأصبح الذي في لون الضحى كثير، وأن الكميت الضارب إلى الحمرة لا يأتي بنتاج ضخم، وأن عليه أن يبتعد بعد ذلك عن قصر الظهر ويتأكد من طول البطن وتناسق الأعضاء، بعد أن جلب عدة مُهُر وأجيراً يسوسها، وتبادل أحاديث طويلة مع كركرة النرجيلة

المسائية حول أسمائها «عقاب» و«السي» و«جناح» و«البلقاء»، حيث قلّب أبي كثيراً بين دفاتر أجداده حول تلك المقولات التي كان يحاول أن تصل إلى أسماع أمي (سهلة بنت منازع) وهي جالسة في شرفتها كقولهم: «إنا لنؤثر الجياد على الأولاد»، «وعليكن بالخيل فإنها حصون العرب».

«أمي» التي كانت مشغولة بالنسوة اللاتي لا يكففن عن عدّ النقود الورقية، والحديث عن القيراط الفلاني والقيراط العلاني لم تعلّق، كانت تتركه يشارك العمة «مزنة» بيت الشَّعر وغلي القهوة نهاراً، وكركرة الدخان في المضيفة مساء، واكتفت بتفقد بَضعة أبي من المُهُر صامتة مكتفية بترفُّعها الذي صرت أراه بوضوح يشبه تأملها لأصابعه المرتعشة وهو يصبّ لها قهوتها في الصباح ويقول ربما مواسياً بيتاً ظل يردده حتى حفظته دون أن أدرك معناه:

«قد يعسرُ المرءُ حيناً وهو ذو كرم

وقد يسوم سوام العجز والحمقِ

سيكثرُ المالُ يوماً بعدَ قلّتهِ

ويكتسي العود بعد اليبس بالورقِ »

كانت تهز رأسها باقتناع بأنه لا شيء يصلح معه، بعد ذلك صار البيت الذي يستقبل وفود «سرور» و«مبارك العبْد» من العرب والخليجيين، سعوديين وكويتيين، يتطلب ذبح مزيد من الشياه وتلميع غرفة الصالون؛ ليتاح لهم تأمل صورة الجدّ «منازع» وهو يعلق خرطوشه على كتفه في رحلة قنص، أو تفقد برواز به عقد إقطاع لشبه جزيرة سيناء للجدّ محجوب الكبير، وصورة للملك «سعود مع مشايخ عربان القطر المصري، ودائرة حمراء حول رأس الجد الشافعي وهو يرفعها بفخار وسط الصورة، صورة لهذا الجد أو ذاك وهو يهنِّئ مولانا بولي العهد أو عيد الجلوس .. يحب أبي أن يتحدث عن مهرة كثيراً، ويؤكد أن «الصهباء» أصيلة، وأنه تعب كثيراً في مسألة الأنساب هذه، لكنها بالنسبة للعائلات الأصيلة مسألة محسومة، قد يحكي قصة ارتباطه بأمي «سهلة بنت لملوم باشا منازع» التي كانت له حتى لو لم يطلبها، ولن يتحدث عن «هند»، سيقول فقط إن ابن العم ينزلها من هودج عرسها بكلمة، سيهزون رؤوسهم وهو يؤكد «نرميها للتمساح ولا يأخذها الفلاح» حاكياً قصة الجد محجوب الذي ألقى ابنته في النهر، سيقول خطبها عباس الأول، سينسى اسمها ويقول إنها كانت مثل الجازية الشريفة بيضاء ولها رقبة ناقة وإنها كانت بنت عرب، ولا تقبل مثل هذا التركي الأحمر، سيضطره ترديده مزيداً من الحكايات لإيقاد النار تلو النار، والقهوة بعد القهوة، وذبح شياه جديدة، واستدعاء «سرور» و«مبارك» و«نوار» من بيوتهم، ليقول إنهم عبيد عيلة منازع، بعد ذلك يستخرج بكارج القهوة الملطخة بالجنزار النحاسي في الصوان لتلميعها، والإصرار على نصب بيت الشّعر في قلب الفناء، وعادة ما تنتهي هذه الجلسات باستدعاء امرأة من نساء «البراموة» لتعطي أبي عدة جنيهات هي حصيلة اتفاقاته الأخيرة على بيع القيراط هذا أو ذاك.

بالنسبة لي لم يحسم مسألة وجودي على الرمال في فناء المدرسة غير تجديدها، وإعادة بنائها بعد شراء

الأرض المقامة بجانبها من أحد أعمامي لتوسيعها، وبعد كل الإجراءات أزالوا اللافتة القديمة، ووضعوا محلها (مدرسة رفعت عبد الحي الابتدائية الحديثة)، لم يعرف أبي الذي رفع عدداً من المذكرات إلى إدارة التربية والتعليم مندّداً بالاستهانة بالتراث والتاريخ، وتشويه الوقائع التاريخية، والتساؤل أين كان هذا «العبد الحي» حين كانت كل هذه الأرض إقطاعاً من الرمل الجاف توارثه أولاد محجوب الكبير، وحين قالوا له إنه كان قائد الحرس الخامس ورجلاً من رجالات الثورة عاد إلى البيت وتَرَس ظهره إلى حائط المضيف ولم يتكلم، ظل يخط بعود جاف في الرمال بيد مرتعشة.

أمي هي التي أصرّت على مغادرة المدرسة نهائياً، حزمت الحقائب، وقررت مغادرة البلد إلى بيتها الذي ورثته على منيل الروضة، ذلك البيت القديم ذي النوافذ العالية لعمارات الثلاثينيات، تركت لأبي مراقبة سباق المهر في فناء دوّارنا، وتاركة لعمتي «مزنة» فرصة تجريب وصفاتها في الحجامة وتصليب القوائم وتهدئة المهر الحارنة بتدليك أنفها بدهن الورد، وتبادل المزيد من الحكايات حول النتاج والتلقيح وفطام «الحولي»، أو الصغير من الجياد.

-3-

جدي لأبي الذي علقوا صورته على أول الحائط كان يدعى «الشافعي»، يقولون عنا جاؤوا من مضارب بني سليم، عندما حج أبي وجد من يحدثه عن تلك المضارب، وقيل له: إنهم أصحاب سلالة «الأعوج» من الجياد، والأعوج فرس صغيرة كانت قائمتاها شديدتي الطول، وكانت تثنيهما في نومتها لعظم طولهما، عندما عاد أبي ومعه كومة من المسابح كان يوزعها في مجلسه في المضيف، وهم يقولون له: «يا حاج»، كان يعدل من وضع عباءته ويقول:

«ليس في العرب فَحْلٌ أشهر اسماً ولا أكثر نسلاً ولا أنجب نجلاً ولا أجرى في أشعارهم منه»، يقولون من يا شيخ العرب؟! يبتسم بحبور ويقول: الأعوج فرس بني سليم، استولدوها لفرس النعمان بن المنذر التي كان اسمها «اليَحْموم»، وأمها من مهرة ركبها رسول الله في بدر يقال لها «السَّمى»، يهزون رؤوسهم ويتفقدون مربطنا الخالي بعيونهم، ويتحدثون عن إحياء التراث البدوي بعقد صابية(8) كبيرة تتسابق فيها المهر وتتبعها كلاب السلوقي.

وعندما تاهت بنا عربة أبي في أول مرة نجرّب فيها مصيف «مطروح»، نزل أبي من العربة أمام مضارب بعض البدوان. كان جالساً أمامها كهل يصحن البن، بعد أن افترش أبي المجلس وقال له متقرباً: إنه سليمي من بني سليم شقيق هلال، حكى له الشيخ أن بني سليم كانوا هنا بمريوط، وتلك الأصقاع القريبة بعد أن عادوا من الجبل الأخضر، وأن بني هلال طاردوهم حتى عبروا النهر وشرَّقوا، ثم أجلاهم محمد علي إلى الجنوب، فكفى أبي قهوته وظل يصحّح واقعه الهجج هذه من الغرب إلى الشرق إلى الجنوب، وانتهى به الأمر بأن أخرج مسدسه من جرابه، وقال: إن بني هلال «بعر المطايا» كانوا يتسولون من بلد إلى بلد، ولولا سيف بني سليم ما جرأوا أن يُغرِّبوا، ولا استطاعوا أن يقفوا للزناتي خليفة. وظلت المعركة قائمة

أكثر من ساعتين بين سليم وهلال على شفاه أبي، وذلك الشيخ الذي هشّنا كما يهشّ أغنامه، وكانت النتيجة أن ظللنا أكثر من ثلاث ساعات ندور بالعربة ولا نعرف كيف نخرج من تلك الأرض الهيش المفخّخة بملاحات واسعة، ونباتات برية، وأحراش، ثم صحراء قاحلة، لم يخرجنا منها سوى بعض الرعيان الذين عثرنا عليهم أخيراً، بعدها قرر أبي عبور الجبل الأخضر بعربة «فولكس واجن» ليقابل الكثيرين الذين حدَّثوه عن سليم وهلال ونزاعهما الطويل حول بئر يقال لها «بئر هديوه»، أبي الذي انشغل طوال الرحلة بتقصّي أخبار هذا النزاع، عاد جامعاً أشعاراً كثيرة أطلق عليها «ديوان الشعر النبطي في أقوال شاعر بني سليم في واقعة الإفك المبين».

جدي الذي علقت أمي صورته بجانب الصور الأولى، ولكن بإطار أكثر فخامة، كان أخاً لجدي الأول، ولكني كثيراً ما شهدت معارك حامية بين الإطارين، فأمي تعتزّ بأن أباها قد أخذ الباشوية، فيما ظل جدي لأبي راعياً للجمال بكعبين مشقَّقين يسكن بيت الشّعر ويوقد ناره راكضاً بكلابه السلوقي، سائلاً الرائح والغادي «نار من هذه يا ولد؟!»، ولم تحوِ تركته على نظارة سَبَق مكبَّرة، ولا على ساعة من الذهب بسلسلة إيطالي من جاتينيو.

جدي لأمي كان يجلس في تراس بيته الذي بناه بالأجر، وسقفه بالخشب والمرائن، وطوَّقه بأدغال من الزهور والأشجار وأبراج الحمام، وحف ممشاه بأشجار البوسيانس والكازورينا، كان اسمه «ململوم»، ولا أعرف لماذا يضيفون لقب «الباسل» ليقترن دائماً باسمه قبل أن يسبقه لقب «الباشا» ويذيّل بأنه «آل منازع».

كان «مللوم باشا منازع» يجلس دائماً في تلك الشرفة، ويدخن نرجيلته، وتحت قدميه يجلس على البساط شيخ كبير يدعى «أبو شريك العيادي»، كان دليلاً لقوافل منازع الكبير، ومعه يجلس رجل آخر يسمى «مبارك العبد» يقال إنه من عبيد عيلة منازع، في غرفة الاستقبال كانت هناك تلك الصورة التي ظللت أحدق فيها، ثلاث فتيات بشرائط ملونة بزيّ مدرسيّ موّحد، وكان هناك ولد يقف منفرداً يداعب عرف مهرة صغيرة في صورة أخرى، وكانت «النجدية» تجلس في البهو على سجادة كبيرة، وتربع ساقيها وسط الوسائد، وتنادي على خادمة صغيرة لتناولها علبة الدواء، التي كانت فيها مرآة كبيرة، وقلم تخط به حواجبها وزجاجة عطر سماوية زرقاء، كنت أجمع فوارغها، كان اسمها «لسوار»، تضع النجدية في فمها دائماً اللبان المر والمستكة وبضع حبات من القرنفل، ومن تحت غطاء رأسها كان شعر ناعم له لون الحناء يغطي طرف حجبها ممسوكاً بمحبس أسفل جفنها.

يتابع الباشا باهتمام كبير النشرات عبر المذياع، كانوا يتحدثون عن التصحيح الثوري والإصلاح الزراعي، كان ذلك قبل أن يدخل من البوابة ثلاثون رجلاً قال أبو شريك «غرابوه» لينقضوا على حدائق العنب والتمر البغدادي وأشجار السرو والحور والكستناء التي جلبها من سفراته، وليركضوا خلف الطواويس الملونة والغزالات في الحظائر، وامتطى أحدهم ظهر الزرافة التي كان الباشا قد جلبها من إحدى رحلاته في درافور.

كانت الغرف المسيّجة بالسلك والتي تحرسها الكلاب قد نهبت تماماً قبل أن يفيق «مبارك العبد» ويطلق من خرطوشه بعض رصاصات طائشة، وكان أبو شريك يطارد الصبية بعصاه ويركض وراءهم وهم يقتحمون مشتل الورد النادر وعبقات الياسمين، قبل أن يجلس جوار الحائط ليولول «الناس اللي تنفع وتضر، غابوا وراحوا يا دنيا وين»، ويحلف برأس الجد منازع الذي كان يخيف الضواري في أرض الهيش أنه سيؤدب الغرابوه الفلاحين، دود الأرض. الباشا الذي كان قد نظم كل شيء ليصلح لاستقبال مولانا إذا رغب في الخروج للقنص، وليصلح لحياة ابنة من بناته كأميرة مثل ابنته «سهلة» التي هي أمي. كان قد دخل وأغلق الأبواب بإحكام، وأمام صورة الجد منازع جلس ليتأمل خريطة الإقطاع الممتد على حواف النهر الذي وهبه مولانا للقبيلة، كي يؤمنوا سير القوافل من بركة الحاج على أطراف القاهرة حتى غزة شمالاً أو القصير والقلزم جنوباً من بعض القبائل التي تنتهب كل من يمرّ بالقرب من وادي القباب على أطراف جبل الطور، فرمان وكالة حراسة القوافل النيلية وما زال على جدار غرفة الصالون الفخم الذي استقبل فيه سعد باشا، ومولانا المعظَّم، والبارون إمبان، والأمير عبد المحسن، والأمير فيصل آل سعود، حيث تدارسوا صلات النسب القوية بين قبائل «شُمّر» وقبائل «عنزة»، وقبائل «بني سليم»، كانت هناك صور كثيرة تغمر الجدران.

ظلت صور هند وهي على فَخْذي مربيتها وحولها سهلة وسقاوة تجاور صورة أو لوحة ضخمة لرسام قالوا إنه هولندي وأحياناً فرنسي، كان اسمه «بييركام»، رسم جلسة سمر بدوية، ترقص فيها الحجالة مغطية وجهها ببرقع، وصفّ من الرجال يصفقون لها وهوادج على جمال قافلة تبدو خلف الصفوف البعيدة، بجانبها صور الولد الذي يدلل مهرته، هذا الولد كان اسمه «نافذ» أو ذلك الخال البعيد الذي أرسله الجد لملوم ليتلقى علوم المحاماة في باريس، لكنه أرسل إليهم صورة عرسه من كاليفورنيا أو «نيوجرسي» مع بطاقات التهنئة وصورة لزوجته اللبنانية التي افتتح معها محطة للبنزين بعد أن تقاضى بتوكيل بيع كل ما ورثه، وكل عدة سنوات يرسل إلى أمي بعض الصور كان آخرها لابنته التي اسمها «صوفي» محدثاً أمي عن أنه يناديها «هند» لأن المرحومة تأتيه كثيراً وأنه لا يستطيع أن ينسى أنه تسبب في كل ذلك. أمي التي اكتفت بالصمت لم تعلق على أسئلتي عن تلك الجملة الأخيرة، أطبقت الرسائل وتنهدت وبقيت «هند» تأتيني لتداعب شعري وتموء.

في البيت ذي النوافذ العالية الذي تمرّ عليه المراكب كان الزجاج الأغبش يكشف النهر من جانب، ويكشف شارعاً ضيقاً مليئاً بالمحال والضوضاء، هنا ستكبر امرأة صغيرة وتحاول أن تحب، وستجلس بجانبها أمها في «الفراندة»، وتراقب حركة القوارب، وتحت قدميها خادمة صغيرة تلمِّع في الصور التي نقلتها من على الحوائط القديمة، وتسمح لشرودها بأن يحط التابلوه الغامض لوجوه ملثمة وَصَفَق رتيب يخرج من الإطار ليتغنّى بمحاسن المرأة المنتقبة التي تروح وتجيء أمام الرجال كأنها طيف، وحين تفيق من شرودها أمام اللوحة ستتحدث عن بيع حديقة الموالح السنوي وأسعار المانجو والبرتقال، كان الذي بقي لها من لملوم باشا ذلك البيت، بيت «النجدية»، وحديقة واسعة وعدة قضايا مع الإصلاح الزراعي، فالأرض التي

تم تقسيمها على الفلاحين بعد تلك الغارة على بيتهم تحولت إلى مستعمرة كبيرة يقطنها أكثر من مئتي أسرة، وكان من الاستحالة إخراج من باعوا واشتروا وتوارثوا، رغم أن أمي لم تكف عن متابعة القضايا، فيما كان أبي يبيع آخر قراريطه ثم يكتب مذكرة مطولة إلى مولانا الملك فيصل بن آل سعود ليؤكد له أن قبيلة بني سليم التي وقفت بجانب إخوانها من شُمر وعنزة قبل الخير حين كانت الجزيرة تنتظر محمل الحجاج، وأنهم فتحوا مراعيهم لإخوانهم عبر أكثر من قرن، آن لها أن تعود إلى مضاربها في نجد، وأن يُعْمل حسابهم في الخير الذي عمَّ وفاض، وأنه يملك أكثر من مستند يؤكد أصوله النجدية، إلى جانب عدة عقود للتحالف في السرّاء والضرّاء وقَّعها سعود الكبير أو نوري بن شعلان شيخ مشايخ قبائل الرولة التي تسكن شمال الحجاز حتى نهر الأردن، وألحقها بعدة صور باهتة لجدّية الشافعي ومنازع وهما يلاحقان الغزالات في العلاقي والقلزم، ومرابط خيل وعبيد يحملون على سواعدهم الطيور الجارحة وتحت أقدامهم رماد القهوة ليثبت بذلك أصالته، ثم ذيَّل تلك العريضة بحوالي ألفي توقيع لأفراد العائلة، لكنه رغم ذلك لم يتلق جواباً عليها.

وظل يروح ويجيء من السفارة إلى الخارجية مقدماً مذكرة مماثلة، مستأذناً السلطات في الهجرة أو العودة إلى دياره. ثم اكتشف بعد عدة أشهر استحالة ما يطلب، وأن أحداً لن يلتفت إليه، ففرك أصابعه التي صارت أكثر توتراً، والعمة «مزنة» تبط له خبز الشعير على الرماد، وتحدثه عن عزّه ودلاله وأن جدّه الشافعي كان يصهل بفرسه من العلواية حتى أرض السبخ والسودان، ولا يستطيع أحد أن يقف بوجهه، أبي الذي كان يردد فاركاً مسبحته:

«ولم أر مثل الهم ضَاجَعَهُ الفتى

ولا كسواد الليل أخفق طالبه»

ظل يراقب قراريطه التي حوطها البراموة والغرابوة وأولاد مزينة وآخرون لم يعد يعرفهم بأسوار طينية، وبنوا فيها تلك البيوت الواطئة، وشقوا بين أبوابها المداخل والشوارع، ظل يطوف بين تلك المداخل الضيقة يتفقد شجرة كافور، كان قد زرعها في أحراش أرضه، أو توتة خليج الشافعي وهم يخبطون في جذعها ليستكملوا امتداد الشارع الرئيس الذي يصل هذه البنايات بالأرض المسفلتة قبل أن يزيلوا اليافطة التي كان مكتوب عليها «ربْع منازع» إلى «عزبة التل»، فيما عمتي «مزنة» ما زالت تجز في وبر ناقة وحيدة، وتصنع من وبرها تلك العباءة التي تحاول منذ عشر سنوات الانتهاء منها حاكية له مجرودة الشافعي أو منازع أو محجوب الكبير قبل أن يلقوا به في جوال إلى النهر مستبدلة الاسم الذي في بداية المجرودة على هواها:

««منازع» عمدة ومشَّهَر

على الأرض يا ما سيْطر

أفنديا فيه اتحيّر

ومنه ياما شاف إقهار(9)
حربي عارف كل علوم
على صدره نياشين نجوم
أصحابه جونا(10) من الفيوم
وكان صاحب عمر المختار»

كانا ما زالا جالسين في بيت الشَّعر يتحدثان عن المهر التي ربطها في دوار البيت، وعن كونها لم تخصب بعد، ولم تنتج سوى تلك المهرة الصغيرة التي لم يختر لها اسماً، ورغم كل الجهود الذي بذلتها العمة «مزنة» في متابعة مسألة النتاج هذه، فقد توصلا في النهاية، وهما جالسان على فرو الضأن في وسط الدوار إلى أن الخيل مثل المرأة، ومثل الدار الجديدة، فيها الشؤم، وقدم الخير، ويبدو أن كل الذي اشتراه أبي لم يجلب الخير الذي ينتظروه، خصوصاً أن الذين يأتي بهم «سرور العبد» ليتفقدوا المرابط وهم يهفون بعقالهم ذات اليمين وذات اليسار، يتحدثون عن المراعي الألمانية والمزارع البلجيكية وكاتلوج جياد العائلة المالكة البريطانية ومزادات الخيل في اكسفورد ولندن، كانوا يرون مُهرات أبي لا تستحق عناء المشاهدة، ويكتفون بالاندهاش لأن هناك قبائل عربية ما زالت تحتفظ بأنسابها وسلالات خيولها في هذا الوادي. أبي الذي كان مستعداً بصوره ومستنداته وبكارج القهوة وعريضة المطالبة بالعودة إلى الأراضي الحجازية لم يجد من يستجيب له سوى هذا الذي يلقبونه بالأمير «لُبَد»، سيأخذ أبي من على فراء الضأن بجرار مرابطه الخالية ليشاركه رحلات قنصه وملفافه(11) باعتباره «بركة» أو خبيراً في صيد الجوارح، سيرحلان معاً في رحلة طويلة من جبال الألب ليصطادا الشواهين البيضاء حتى جبال سنقار في أوزبكستان أو تركمستان، وأحياناً أطراف كندا واستراليا.
أبي الذي سرّه كثيراً ركوب الطائرات وكان يملك مهارة في احتساء القهوة وتقليب النار وله عينان صغيرتان حادتا الإبصار وقادرتان على معرفة الطيرة وعمرها وأصالتها من النظرة الأولى، بل إنه بدا خبيراً في كل الجوارح ومواسمها وأقطارها وأكثر خبرة في جبر الريش إذا انكسر للطيرة واحدة أو أكثر، يستطلع أرض الملفاف ببصره الحاد ليتحاشى أثر الهوام، وكان قد جاس أرضاً كثيرة، وباع قراريط أكثر، ليركب عربة مصفحة (جيب قديمة)، ويركب مع سرور ومبارك من وادي النطرون والعلمين إلى وادي الريان وبحيرة قارون، قضى أياماً طويلة من حياته يطارد فرخات القش والطرشون منتظراً أن يسقط في ملفافه عدة شواهين ليعيد بها أمجاده بعد بيعها بعدة آلاف، ولم تسقط في ملفافه سوى الحبارى والجرابيع، كان الصيد مع الأمير «لُبَدْ» في تلك السفرات ليس شركاً بائساً على ظهر حمامة قد يقع عليها طائر ما يحلق كفريسة ويسقط مخلبه في لفافة الشراك فيركضون نحوه ليطوقوه بعباءتهم، بل معركة بهيجة يطاردون فيها الطيور باللاسلكي والبنادق الآلية، ويحدِّدون مواقعها بالرادار، لذلك اكتفى أبي بالتعامل مع الموقف ليس باعتباره صَقَّاراً بل «خبير جوارح» يفرك مسبحته ويقول إن الأبيض من الطير

يسر العين، والأسود شرس، والأحمر صَيُود، والأخضر في الشواهين هو أردأ الأنواع، والنداوي يصلح للقنص(12)، وقد يحكي لهم عن الجد منازع الذي اصطاد القرود والنعامات من أرض السودان، أو أنه كان للجد الشافعي صقر سنقاري عمّر عشر سنوات كان يسميه «القنوع»، يكفون قهوتهم وهو يتأمل القاعة التي ملأها الأمير «لُبد» بكل الجوارح على اختلاف ألوانها، وترك لعبيده مهمة ملْء حواصلها بالطيور الصغيرة وتنظيف مخالبها وتدريبها على مطاردة الغزلان.

بعد أن عاد أبي من تلك السفرة الطويلة علّق على بابه لافتة باسم الشيخ «مطلق الشافعي السليمي خبير خيول وصقور»، وطبع عدة كروت ليعطيها «مبارك» لضيوفه الذين يأتون إلى صيْد الغزلان من وادي العلاقي بعد أن نصب وتداً وعلق في طرفه فرخة ريش وبعض حباري وحمامات برية في قفص، وصار يتحدث أكثر عما يليق باسم العائلة، وعن مشروعات إعادة أمجادها، كالتفكير في عقد مجلس دائم لها، وأيضاً، التفكير في إنشاء جريدة باسم القبيلة يكون شعارها «البداوة أصل الحضارة».

كان جاداً دائماً في توجيهي نحو دراسة الدور التاريخي لعربان المشرق منذ الفتح الإسلامي وحتى عهد محمد علي، وكان عنواناً لطيفاً يصلح لكتابة حدّوته تثير الشجن، لكنني فضلت أن أكتب شيئاً آخر، وأن أؤخر هذا المشروع ريثما أصل إلى معرفة ما جرى لهند في البيت المظلم.

-4-

جدّي لأمي وأبي ليست له صورة، كان اسمه «يونس»، كان أخاً للشافعي ومنازع معاً، ولد هذا الجدّ في برّ الشام بعد الهجج، يقول أبي: استنجدنا بالشريف عبد الله، وتقول أمي بل بنوري بن شعلان سيد قبائل الرولة، كانت «خيّالية» التي حكوا عنها المجاريد التي تهدهدني العمة «مزنة» على وركيها وهي تهزج بها:

«ما انك للي يصيد عويل
ولأنك ثوبة للرعيان
انتي سلالة من حرّ لسيد
جداد منسّب للشجعان»(13)

قد ألقوا بها في النهر للتمساح حتى تظلّ مهرة أصيلة ولا يمتطيها فلاح، حتى ولو كان «عباس الأول» ابن مولانا المعظّم، يقول أحد أعمامي، كانت كتائب عباس تركض وراءنا بالهجن، وقد شردنا بالنساء في الصحراء حتى وصلنا إلى الخان، عمة أبي التي لا أعرف اسمها ستقول إن هذا الجدّ الذي هجّ بنا كان اسمه يونس، وإن الوالي أرسل وراءه من طعنه في ظهره عند الخان، ولكن هناك روايات أخرى تقول إن «سطام» وهو ابن عم شقيق له هو الذي طعنه في ظهره، فسموا ذلك الموضع «خان يونس» أي المكان الذي تمت فيه خيانة يونس، وأنه فعل ذلك ليتولى مشيخة قبائل العربان.

يونس هو الذي أقسم مع «منصور المزيني» شيخ قبائل «مزينة» على أخوّة الدم في برّ الشام، فظلّوا عُقُوداً

يستبدلون الزيتون والزيت وقطع الصابون الحلبي بحرير ودبيق وشعير أرض القبط، ويقال إن لملوم الباسل هو الذي أسكن قبائل «مزينة» في دوراه حين هجّوا من اليهود وقالوا: «نحن أصحاب عهد يا شيخ العرب»، فنصب لهم خيمة قرب مضيفه، ولما ضاقت بهم بنوا بيوتاً طينية وأحواشاً في ربع منازع وظلّت جمالهم تروح وتجيء في قوافل الحجيج ومواسم الحصاد ورحلات التجار.
حين تمر عمتي فاطمة المزينية على مجلس أبي تقول العمة مزنة «الضيفة»، الضيفة قالت، الضيفة راحت، الضيفة قعدت، وما عادوا ضيوفاً، صاروا جيراننا حين ندق السامر لكف العرب تأتي العمة فاطمة لتضرب بالعلم(14) وتهزج:

«عذراً منسوبة وتخيل
تخفّ الشايب والشبان
وعيونك جوز غداريات
يهودي صابغهن بألوان»

وحين يلطخن وجوههن بالنيلة تأتي العمّة فاطمة ومعها أختها مريم لتنقرا طبول الحداد تنوحان مع جداتي:

«بوابته يام السبع علامات
حيغلقوكِ اليوم بالضلفات»

تأتي العمة فاطمة لتصحن الكحل الحجري والشبَّة والمستكة، وتتحدث عن ديار عنزة، وأرض مزينة، ومرابع الحويطات وتختم الحكايا بأن تقول «الله يرحم ناسنا وناسك كانوا جَوَاد وأهل مروءة».
العمة فاطمة كانت صديقة النجدية الوحيدة، فحينما جاءت النجدية من كفر الزيات على هودج وقافلة من الجمال كابنة عرب حقيقية، وأطلقوا لمقدمها الخرطوش طوال سبعة أيام، اكتشفت النسوة أن بنت آل الجبالي النجديين الأشراف ابنة حضر، وتعرف كيف تخطُّ حَاجِبيها بالقلم الأسود، وتسف النشوق من منخار حاد طويل، ولها عينان مكحولتان بالإغواء. كان لملوم باشا فخوراً بامرأته، فرغم أنها مهرة أصيلة، لكنها لم ترتد البراقع السُود، وتخرج من غطاء رأسها خصلة الشعر الناعمة وتعلّق على مفرق رأسها التعاليق المذهبة كأميرة تركية، وتعرف كيف تصنع «أبرمة الحمام» و«الترلي»، وتحشو الضأن بالزعتر والفستق، وفي صينية القلل الفخارية تضع أوراق الكافور، وتذيب في الماء رائحة الورد المقطرة، وتضع بين الملابس أوراق الحنّاء.
كل ذلك كان مبهراً وسط البيوت الطينية الواسعة التي ما زالت تفت دقيق الذرة في اللبن الرائب، وتسكب عليه العسل الأسود كقمة ما يعرفون في فنون الطبخ، ولم يكن سوى الضأن وفتيت الخبز للضيوف وأهل المربع، «النجدية» التي وجدت في الجدة «فاطمة» الاهتمامات نفسها، تشاركتا معاً في تعبئة عصائر

المانجو بعد تسكيرها وإغلاقها بالشمع، وعمل مربى اللارنج التي يتحاكى بها النجع كلهن، العمة فاطمة المزينية هي التي تفرك «للنجدية» ظهرها بمفروك الكافور وزيت الزيتون وتعالج كل الأوجا ع تقريباً، لذلك ارتبط اسمها باسم «سقاوة»، تلك التي تقف عن يمين انشراح في الصورة «ممتلئة» أطول قليلاً من «سهلة»، أقل جمالاً من «هند» وأكثر من «سهلة»، لم يقولوا عن «سقاوة» مسكينة رغم أنها رحلت أسرع، وعاشت سنوات طويلة تسقط باردة الأطراف متقلصة الملامح رغم أنهم علقوا لها حجر الياقوت عند مفرق رأسها ليذهب وجع الرأس وألبسوها الحرير الأخضر كي يهدأ بالها وتذهب الأرواح الشريرة، وبحثت «النجدية» في كل النجوع، ليجدوا حجر «الدر» الذي يسكن القلب، ودقوا لها سمكة خضراء على صدغها بالوشم، وشرَّطوا أعلى حاجبها، لكن «سقاوة» التي تتحول من قطة وادعة إلى جريدة مطروحة على الأرض، باردة وفاقدة للحياة، كانت لا تفارقها تلك التشنجات، ظلت تسقط مرة بعد أخرى، ورغم أنهم حرّموا عليها دخول المطابخ والتحرّك وحدها فقد سقطت ذات مرّة على حديد الفراش ومرّة على قصعة النار، ثم أخرى على صوان البكارج قبل أن تسقط سقطتها الأخيرة على عامود البلكون الذي يشبه القلّة الفخارية. تحلّقوا حولها، كان الدم ينزف والكلوب الذي في سقف البلكون تحطّ عليه فراشات كثيرة وتطير، ولأجنحتها رائحة شواء الضأن.

العمة «فاطمة» المزينية هي التي تعرف تفاصيل الحكاية التي أخفوها كثيراً، ربما كانت جالسة مع «النجدية» حين سمعت صوت الباشا يقول إنه مجرد كلب، وكانت «سقاوة» ممددة بسيقان بيضاء وملقاة على الأرض، وكانت عينا «سهم» توغلان في ثنايا الثوب الذي انكشف لسيدته، «سهم» الذي كانت «انشراح» تلقمه أحد ثدييها وتلقم الخال «نافذ» الشق الآخر، و«النجدية» تقول: إن لبن العبيد يصلب حيل الرجل، على عكس البنت التي لا ينبغي أن ترضع أبداً من عبدة. «سهم» الذي كان يركض كجرو مع الصغيرات اللاتي في الصورة، وبينما كانت أجولة القطن تُعبَأ في أكياس ضخمة وترصّ في فناء بيت «النجدية»، وهم يتحدثون عن أسعاره، كانوا يقفزون جميعاً من فوقها وكانت ساقا«سهم» النحيلتان تنقران مثل قرود الأرض السبخة، وحين يلعبون لعبة الاختباء كان دائماً يأتي بسقاوة من مكامنها، وحين تتدحرج بين الأجولة مختفية ويمسكها من ضفيرتها، هذا قبل أن يكبر ويقول لكل الصغيرات «يا بنت سيدي» ويخفض عينيه قبل أن يمر بهن.

ولكنه ظل رغم ذلك يروح ويجيء بين الفناءين، فناء البيت وفناء المضيف أو مجلس الرجال، يدخل ويخرج من قاعة المطابخ يحمل بكارج القهوة وآنية الطعام على رسغه، ويمسك لـ«نافذ» مهرته حين يمتطيها ولا يظهر في الصور، وحين أسأل عن شكله سيقولون باختصار: «عبد من عبيد عيلة منازع»، ربما له ملامح «انشراح» أمه، أو «نوّار» أخته، أو ملامح أخرى لا يحبون تذكرها، يقولون إن له اسماً آخر، لكن الباشا هو الذي أطلق عليه «سهم»، لأنه كان يستعيض به عن كلاب السلوقي في رحلات صيده، يركض وراء الطيرة التي يسقطها الخرطوش، ويأتي بها قبل أن تسقط على الأرض. «فاطمة» المزينية ستقول: إنه كان جاثياً فوقها حين انتزعه الباشا، يبكي ويقبّل ساقيها اللتين انكشفتا معتقداً أنها ماتت، وعلى الرغم من أن

«سقاوة» كانت غائبة عن الوعي تماماً ويحدث كثيراً أن تتصلب وتقع وتصبح في برودة قطعة معدن، فإن الباشا رفعه باتجاه الفراغ قبل أن تلتهب النيران ويعمّ البيت رائحة الضأن التي تشتعل على الخوازيق.
ظلت العمة «فاطمة» التي تجلس بجوار «النجدية» تروح وتجيء، تسحق البن والهيل والحبهان، والباشا يجلس في «تراسه» وثمة ضيوف أكثر أهمية، يفرش لهم المشى بالسجاد الأحمر، ويتحدث عن مولانا الذي يقنص في أنشاص أو قارون أو وادي الريان، وتراقب «هند» وهي تسند رأسها إلى فراغ البلكون، و«سهلة» تلعب بعرائس قش وقطن مع خادمات صغيرات، مر زمن طويل، صارت العمة «فاطمة» لا تغادر بيتها ولا تجيء لتقول لأمي: «الله يرحم الغاليين»، وصار أبناؤها الكثيرون إذا مررت عليهم لا يعرفونني وكنت أمرّ، فقط على بيتها فأراها محنية بثوب مطرّز، وعلى وسطها نطاق أحمر، وفي سيالتها مفروك المريمية، وصارت تتسند على عصا غليظة، وحين أمرُّ ستتطلع بعينيها الضيقتين منادية على قفزات قدمي «يا بنت شيخ العرب يا أم الحرير مقصَّب» و«يا بنت شيخ العرب، يام الضفير معطّر».
أنظر إليها و«نوّار» التي كفت عن حملي وصارت تسير جانبي تاركة لخطواتي أن تسبقها قليلاً من باب الاحتشام، هي التي تقودني لأسلم على «ريحة الغاليين». كانت «النجدية» قد ماتت ولا أعرف هل كانت «هند» في البيت المظلم أم لحقت بها.
بعد عدة سنوات أخرى كانت البيوت الطينية المتلاصقة لآل مزينة قد تحولت إلى مبانٍ مصبوبة بالأسمنت والحديد، وتحتها بعض دكاكين البقالة والخردوات، وصرت إذا مررت لا يناديني أحد. فقط أشمّ رائحة المريمية المفروكة وحَبَّ الهيل في سيّالة العمة فاطمة وأترحَّم عليها.

-5-

«انشراح» التي في صورة «هند» بثوب قصير وبنطال منفوش، سمراء، معافاه ولها صوت فشلت «النجدية» في أن تجعله أقل ضجة، يقولون: إن الجد منازع اشترى أمها من مكان يدعى «ود مدني»، كان ذلك عندما كان عائداً مع قوافل الصمغ وريش النعام والأخشاب المعطرة. كانت القوافل التي تمشي جمالها معقوفاً على متنها ذلك الحبل الطويل الذي يمسك رسغها صف أطول من الرجال والنساء والصبايا مضطرين لاستكمال المشي بأقدام متعبة متورمة وتحت شمس حادة ورمال ليس عليها أثر شيء سوى هياكل جمال وضباع وبشر نفقوا في رحلة ما في الطريق، وكلما توقفوا في محطة، كان عليهم أن يخفِّفوا من حمولتهم حتى تصل إلى البحر بخسائر أقل، عارضين البضاعة بأسعار بخسة، الجد منازع التقط الكثيرين وأسكنهم في ربعه، أسفل التلة العالية وسماهم الناس «عبيد علية منازع». «انشراح» التي تسكن هناك حيث بنى «مبارك العبد» الآن دواره، وصار له مضيفاً واسعاً وعربة لاندروفر، وحول بكارج القهوة تتحلّق دائرة من الضيوف يقول بفخر: «كوايتة»، «سعوديون»، يترجلون بعدها في عربات أكثر فخامة ليلاحقوا غزالات «أيلة» و«العلاقي» في رحلات قنص يصبح فيها عبيد عيلة منازع أدّلاء مخلصين، لا تستطيع العمة «مزنة» إذا مرّت هناك أن تتحدث بجرأة أكثر عن «حبايبنا وخدامينا» مع أنهم ما زالوا يقفون لمرآها وحين

تمد يدها فسيأتون واحداً بعد آخر لتقبيلها، ويقولون لها كما كانوا دائماً «يا بنت سيدي».
«انشراح» التي تسكن هناك الآن، وإذا مررت فلن تعرفني لأنها لم تعد تتذكر أحداً ولا حتى أحفادها الذين يلعبون حول البيت. من يوم أن أخرجوها من البيت المظلم كانت عيناها المليئتان بهذا النعاس والاحمرار كليلتين تماماً وغير قادرتين على التحديق سوى بهذه الإغماضة، الأطفال الذين ينادونها يا جدة سينظرون لي بحذر وأنا أعبر الطريق الترابي خلف التلال الخفيضة. يقولون إنها كانت تحزم وسطها بهذا النطاق المتسخ الذي تربط فيه مفاتيح الغلال وغروق القدور والخزين، تفتح صدرها لتظهر عظمة عرقوبها ناتئة لتكشف نحولها على تلك العظام البارزة، «الشناف» المعلّق في الأنف أخذ من لحمته الكثير وتدلى فربطته من الجانبين بخيط يرفع فردتي حلق أكثر ثقلاً، تركا شقاً واسعاً في موضع القرط، تعلق الخيط الذي يرفع الثقل عن الأذنين فوق رأسها من تحت الغطاء سيبرز الخيط المعلّق بالدبابيس الملونة، تظل تروح وتجيء محدثةً بخلخالها الكبير تلك الضجة مع خشخشة المفاتيح وصوتها الهادر إلى الخادمات آمرة ناهية.
تركت لها «النجدية» عدَّ أجولة الطحين، ومراقبة نظافة الحجرات وتجهيز حوائج المطبخ، فهي التي تراقب البيض الذي فقس، والبطات التي يجب ملء حواصلها بالحبّ، والبهائم التي جف ضرعها أو امتلأ، تكتفي انشراح بأن تجلس تحت قدمي سيدتها وهي تدلكها بزيت الخردل والماء الدافئ وتقول «يا ستنا.. عبأنا زلعة سمن»، و«يا ستنا فتحنا زلعة جبن»، و«يا ستنا كم كيلة سنعجن الليلة؟».
«انشراح» هذه هي التي كان عليها حمل ذهب النجدية بعيداً عن أعين العسكر الذين هبطوا، وفي أيديهم قائمة الأسماء، التي كانت أرض الباشا تتحول بها إلى إقطاعات صغيرة لا تتجاوز الفدّانين، يبنون حولها الأسوار ويشقّون بينها قنوات السقي، وثمة عسكر آخرون كانوا يحمّلون على المهرات والنوق والنعامات والغزالات الصغيرة من الدوار، مقسمين أرضاً كان يطلق عليها «إقطاع البدوان» إلى رقعة شطرنج، تاركين حديقة آل الباسل خالية تماماً بلا جوارح أو مهرات أو غزالات مسيجة في الأقفاص، النجدية التي جمعت كل ما على صدور بناتها من حليَ وكرادين ذهب، وخلاخيل مجدولة، ونبائل وصدريات من الذهب، وصرَّتها في ثوب (خلق)، وربطتها حول وسط انشراح لتجلس هناك عند خليج منازع أسفل توتة فردتْ فروعها المائلة على الخليج، بعد أن حمَّلتها بصغيرتها «نوار» إمعاناً في التضليل، ومن وسط خرق الصغيرة كانت جنيهات ذهبية مدسوسة في اللفائف في حجر عبدة تهزج وهي تحمل صغيرتها، سيقولون للنجدية كل مرّة «العبد يبيعك كما تبيعه»، لكن انشراح كانت تعود كل مساء محمّلة ببضعتها لم ينقص منها شيء، وظلّت تفعل ذلك كلّ مرة كلما عبرت مصفحة هنا أو هناك.
«انشراح» هذه التي كان يسمع صوتها من ثاني دوّار، وكان لحركتها العنيفة في البيت هذا الضجيج لم تعد تتكلم على الإطلاق، قالوا السكتة وقالوا الحزن، حدث ذلك على فترات طويلة، كانت رائحة النار التي أمسكت بتلابيب «سهم» ليحترق معه المضيف بأكمله قد وصلت إليها متأخرة، ولم يفسروا لها كيف أبقت النار على ساقين مقيّدتين، في جثة محترقة؟! وكيف حدث هذا؟ ظلت تدب من غرف الخبيز إلى قاعة القدور إلى صالة الغلال لكنها لم تتكلم حتى عقفوا «هند» من ساقيها وأوثقوها في الفراش قالت: «أنا مع بنت

سيدي حتى يؤون الأوان».
ثم حملتها إلى المبنى الذي في آخر ممشى الحديقة محفوفاً بأشجار ليمون وأبراج حمام قديمة ومهدمة، يتجمع فيها الكثير من النفايات والقشّ وبقايا فراش قديم كنت أستطيع التكّهن بما فيه، كان بيتاً قديماً من غرفتين تم بناؤهما بالطين والتبن وقاعة في وسط سقفها فتحة دائرية بين ألواح الخشب، من الفتحة كانوا يدلون سلال الطعام وبعض الاحتياجات الأخرى.
«انشراح» التي في الصورة تحمل هند في حجرها ظلت تحملها في هذا البيت المغلق داخل القاعة التي في سقفها تلك الطاقة، كان هناك مضخة ماء تجلس تحتها «هند» كل مرّة يتلوث ثوبها بالبول أو البراز، تدق «انشراح» المضخة ليغمر الجسد الماء الذي يستكين ويتكوّر في بؤس، الماء الذي ينسكب على الأرض يخرج من مجرى تحت تجويف الحائط إلى الخارج، حيث ينصرف تحت أشجار الليمون. من فتحة السقف كان يمكن التكهُّن بأول النهار وآخره ومواقيت إزهار البرتقال، وطنين البعوض صيفاً وانسكاب المطر على السقف، ورائحة الماء الراكد تحت الأشجار. الغرف التي أغلقوا نوافذها، بالطمي والقش صارت مصمتة لا يُسمع منها شيء ولا يدخل إليها شيء، ضوء النهار وحده هو الذي كان يدخل من فتحة السقف، وكان بأعلى كل غرفة كوة صغيرة تجاور مرائن الخشب في السقف تجد بعض الهواء لكنها لا تدخل شيئاً، تقرفص «هند» على الفراش وتظل عيناها باتجاه الكوّة التي عرفتها الفئران والقطط والعصافير الصغيرة وبعض الخفافيش والعناكب، بعد أن بكت وانخرطت كثيراً في النهنهة والصياح ونبش الحوائط بأظافرها، ويد «انشراح» العفية تمسك بها في تلك النوبات حتى تمرّ ثم تضع رأسها على حجرها وهي تتلو الرقي والتعاويذ، وتعيد تضفير خصلات الشعر التي كانت مثل «سلاسل الذهب»، كما تقول «النجدية» في ضفيرة طويلة، بعد مدة استكانت للصمت من جديد والذهول عن نفسها.
«انشراح» قالت إنها في الآونة الأخيرة كانت مثل النسمة بعد أن كفّت عن لطم خديها وخبط رأسها في الجدار، كانت تنهمك فقط في مراقبة الخارج بكل حواسها، تتلصص على الحوائط لتتسمع صوت صحن اللبن الذي كان يأتيها عبر دقات لها إيقاع ثابت تتشمم رائحة الضأن الذي يُشوى في مكان ما محدّثة نفسها أحياناً أنهم الآن في المطابخ يوقدون النار تحت الأواني الضخمة، وأن النجدية ما زالت تُخَبِّئ في صدرها علبة النشوق، تراقب من فتحة السقف «نقرات الظباء» وهي تدخل نجمات قليلة متناثرة تركض في السماء، تعرف بمرورها على هذا الموقع أنه عبرت سنة جديدة، و هي لا تزال تتحسس الجدران وتتسمع ضجة ما، مواء قط، رفرفة أجنحة طيرة على الأشجار، حفيفاً خريفياً تسقط له أوراق جديدة، لم تستطع أن ترى تجاعيد وجهها ولا الشعر الأبيض الذي غزا فجأة مفرقها، حين تأخذها «انشراح» على ساقها وتضفره وهي تهزج:
«الصبر ما قَضي حاجات ملّيت، والرجا بابه قَفَل»(15)

كانت تشعر أكثر بهذا الضيق الذي يعيدها إلى دوامة البكاء، ثم تعود لتصبح ساهمة شاردة تلاحق أشياء

مجهولة في العتمة، متأكدة من أن الرجاء بابه مغلق مثل الحيطان الصامتة، وحتى لو خرجت فإن ثمة عزلة أحكمت سياجها ولم يعد إلا التحديق في الفراغ، لم يعرفوا هل كانت واعية أن لها طفلة صغيرة تجلس باستكانة في حجر «سهلة»؟ هل أطلقت روحها لتتفقدها؟ سيقولون إنهم رأوها تفتل العجين معهم، وأنهم تطلعوا حولهم فماءت قطة ما وخرجت شاردة، بعضهم كان يراها دائماً كما كانت، تُسّوي الفراش في الغرف، أو تشرب من الماء المعطر في طرف «التراس» ثم تتمسّح في قدمي سهلة وتخرج تموء وتخدش في البسط المفروشة، ورغم أنهم كانوا يتهامسون عن أرواح الأحياء والموتى فقد تحاشوا جميعاً أن يذكروها، وأن يذهبوا إليها لو عبر هذه الطاقة الصغيرة وسط السقف، لأن ذلك فيما يبدو كان سيقلّب عليهم المواجع، كانوا يكتفون بسؤال «نوار»: «أمك حلوة يا بنت؟»، ولم يسألوا عن «هند» أبداً، وكان يكفيهم أن تطأطئ «نوار» رأسها ليطمئنوا.

الظلام الذي تحدق فيه هذا لم يعد يخفيها، ولا نباح الكلاب في الحقول البعيدة. تقرفص في الضوء الشحيح أو العتمة، وتكوم حبات الرمل على أرض الغرف التي لم يصقلوها بالخشب وتركوها بطينها لتنبشه بأظافرها محدثة خطوطاً طويلة وتقاطعات شبيهة على الجدران التي كانت بلا طلاء أيضاً ولا صقل، كان طَمْياً ينفرط منه الرمل إذا حكته، وتصنع منه معسكرات النمل ثكنات تمرق بين جحورها هنا وهناك، لم تحاول عدّ الأيام ولا صنع العلامات، «انشراح» هي التي استطاعت أن تضع علامات مؤكدة للساعة والفصول بالنجوم التي تعبر على فتحة السقف ورائحة زهر البرتقال إذا أزهر، ربما انتظرت الموت لكنها لم تحاوله، كانت قد فقدت قدرتها على فعل أي شيء سوى التحديق ولم تحاول الهرب، كانت مستسلمة تماماً محنية على كومة رمل أو متطلعة باتجاه كوة أو مقرفصة تحت السماء الضنينة التي تعبر فوق فتحة السقف، تاركة للندى الليلي جسدها، محاولة استنشاق شيء غير هذا الهواء الراكد ورائحة الماء العطن تحت المضخة، الدمامل التي غزت ساقيها من تلك القرفصة فشلت «انشراح» في علاجها بقشر البصل والرماد.

وكانت تتفتح كل يوم بثور جديدة ويسيل منها القيح، وثمة سعال مبحوح صار يلازمها، سيقولون مسكينة وهم يتطلعون إلى جسدها، ويسكبون الماء الأخير لغسل موتها، ولن يضعوا لها «الصغيرة» التي تركض في بيت الملوم باشا في حجرها مرة واحدة، لأنها لن تتذكر ذلك، أو ربما تذكرته كثيراً حين كانت تتسمّع للجدران الصمّاء ولا يأتيها سوى ضجّة بعيدة تحاول تفسير حركتها، كانت ضجة لامرأة ذات شعر قصير يشبه في تجاعيده شعر ليلى مراد أو أسمهان، وبأنف طويل تدعى «سهلة»، كانوا يخيطون لها فستان «بديكولتيه» مفتوحاً وعقداً من اللؤلؤ لتذهب إلى البيت نفسه الذي خرجت منه «هند»، لأن الملوم باشا سيقول وسط نهنهة ابنته الصغرى: «أنفك منك ولو كان أجدع .. والبنت لابن عمها ولو تخلع عينها، وبنت العرب مثل الناقة الطوع مطرح(16) ما تعقلها تبرك، ومطرح ما تسيِّرها تسير». وحين مضت سهلة حاملة معها تلك الصغيرة التي في الصورة بفستان «كروشيه» أبيض لم يقولوا عنها مسكينة لأنها لم ترد أن تكون كذلك، على عكس الصغيرة التي كانت تذهب محمولة على أكتاف «نوّار» إلى مدرسة ربع منازع

الابتدائية، كان طرف الخيط في يدها صوراً غائمة تحاول استكمال تفاصيلها، وكأن ثمة طريقاً كان عليها أن تتعقبه ومصيراً مماثلاً مجبرة على تكراره، كانت هند تأتيها كثيراً تحدثها أن تغلق ذلك الصندوق، لكنها كانت مُصرّة.

*** روائية مصرية تقيم في القاهرة .**

(1) أجزاء من رواية ستصدر قريباً بهذا الاسم.
(2) «شعر بدوي»، شهايد: علامات توضع على القبور.
(3) خيمة بدوية من شعر الضأن.
(4) الطيور الجارحة التي تستخدم في الصيد والقنص كالصقور والشواهين.
(5) ما أنت صيدة سهلة، ولا غنيمة يغنمها الرعاة.
(6) صيد الطيور الجارحة .
(7) أهزوجته تتحدث عن الأصل الطيب في كثرة الولد وكثرة النوق والجمال.
(8) الصابية: ساحة سباق الخيل أو الرقص .
(9) إقهار: قهر وعنت.
(10) جونا: جاءونا .
(11) الملفاف: رحلة صيد الطيور الجارحة كالصقور والشواهين.
(12) القنص: صيد الغزلان.
(13) أنت لست صيدة ولا غنيمة للرعيان، أنت من سلالة حرّة وأجدادك أنسابهم للشجعان.
(14) نوع من الغَناء البدوي.
(15) صبرت حتى ملّت ولم يَقْض الصبر لي شيئاً، والرجاء بابه مغلق.
(16) مطرح: مكان، تعقلها: تربطها .